إلى جَميع أصدقائِي على مَواقِع السّوشَل ميديا.. وكلِّ من يُتابعُ مَسيرَتي الأدَبيَّة.

الطّبعة الرَقميَّة الأولى، كانون الثاني ٢٠١٨

.

الأكثرُ وَجَعًا.. ليسَ ما لم يَكنْ يَومًا لنا،
بل ما امتلكناهُ لحظة من الزَّمَن..
وسيَظلُّ يَنقصُنا إلى الأبَد.

أحلام مُستغانمي

كأنَّما الحَيَاة.. معَ فواجِعِها ومآسيها،
تبقى نُكتة هائلة..
لا تستحِقُّ بَعدَ البُكاءِ غيرَ الضَّحِك!

جبرا ابراهيم جبرا

يَطالبُ الإنسَانُ بالثّأر من عدُوِّهِ تَحقيقًا للعدالة.. هكذا يَظُنّ.

تحقيقُ العدالة.. حُجَّةٌ رُبَّما.. وَجَوهرُ القَضيَّة هو.. التَشَفِّي!

بيدَ أنَّ الأنظمَة القضائيَّة والقوانين والمَوَاثيقَ الدُّوَليَّة عاجزَة عن أن تكونَ عادلَةً.. فكيفَ بسَورَةِ غضَبٍ تَسعى لأخذِ ما تَظنُّهُ حقًّا لها بأسلوبِها الخاصّ؟! القانونُ الذي فَبركَه البَشَر ليسَ كاملاً! ولا يَنتجُ عنِ الشَّبيهِ إلاّ الشَّبيه به. القانون من نِتاجِ العَقل، والثأرُ إفرازاتٌ غَريزيَّة، وإذا كانَ العَقلُ عاجزًا فهلِ الغريزَةُ قادِرَة؟ إنَّ الانتقامَ لا يرتكزُ على مُعطًى عِلميٍّ مَنطِقيّ، لأنَّ المُبادِرَ الأوَّلَ في الأنِيَّةِ ليسَ مَحقوقًا مئة بالمئَة.. وعلى من تأذَّى أيضًا جزْءٌ كبيرٌ منَ المَسؤوليَّة. الثأرُ مَخلوقٌ هَجينٌ مُرَكَّب.. عَقلٌ وألَمٌ وَغَريزَة.. والمُرعبُ أنَّ الثّلاثةَ مُتساوون فيه! هو كيمياءُ ألَّفَت عناصرَها المَرَاراتُ الشَّخصِيَّة مَمزُوجَةً بمَوروثاتٍ ثقافيَّةٍ عُرْفيَّة بيئيَّة. وغالبًا ما يُخلِّفُ هذا المَخلوقُ الغريب، مِن سُلالتِهِ، طابورًا يَجُرُّهُ وراءَه كالفاكوناتِ المَشكولةِ بالقاطرَةِ الأولى. وهل يقفُ الثأرُ عندَ فِعلٍ ورَدِّ فِعل؟! فَرَدُّ الفِعلِ يُفضي هو الآخر إلى رَدِّ فِعلٍ آخر.. وربَّما رَدَّات فِعل.. وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. من هنا الانتقاماتُ المُمتدَّة لسَنَواتٍ.. وربَّما لعُقودٍ طويلةٍ، فتَمسُخُ حَيَاةَ المَرءِ جَحيمًا لا يُطاق. لو تركَ الإنسانُ أمرَهُ ليَدِ الأقدار..! وهي، لعمري، بارعَةٌ حَكيمةٌ في مَسْكِ دَفاترِ انتِقاماتِ البَشَر، وتُحسنُ جيِّدًا في إعطاءِ كلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه.

هذا وديناميَّاتُ تَطبيقِ الثّأر تُرهقُ الذَّاتَ بنَشَازاتِ وَعكَرِ العاطفةِ المُتحوِّلَة معَ الزَّمَنِ إلى أورامٍ خبيثة.. و"مُربَّعاتٍ نَفسيَّةٍ" ماردَة. والمُنتقمُ ليسَ البتّة أفضلَ من البادِئ.. كلاهما مذنبٌ.. كلاهما شِرِّير.. وكلاهما عَبدٌ مَسوقٌ بينَ سَبيَّاتِ الحِقدِ المُزمنة. إن هي إلاَّ دَوَّامةٌ.. بل هي آلةٌ عَمْيَاءُ.. تَدُورُ وَتقِفُ بإرادَتِنا.. وإلاّ سَتُجهزُ على بُقيا أخلاقِ فينا، وتَرَسُّباتِ فكرٍ حَضَاريٍّ في زمَنِ العَولمَةِ والحداثةِ الفائقة، والتنوُّعِ والقريةِ الكونيَّة وقبولِ الاختلاف.

وإذا زَحَفَتْ آكلةُ الثأر إلى دِيارِ الحُبّ.. فهي لا تُبقي على أخضرَ ولا يابس. الحُبُّ جنَّةٌ.. هو ظِلُّ السَّمَاءِ على الأرض. إنَّه الوَرْدَةُ التي أهدَتها الألوهَةُ للانسان. فإذا بالكائنِ البشَريِّ، كعَادَتِه، وفي حَمَاقةِ الغريزَةِ وكبرياءِ الشَّهوَة، مسَخَ هداياهُ الرّائعَة دُمًى مشَوَّهَةً وفزّاعات. الحُبُّ عِطرٌ ليَشُمَّهُ العُشّاقُ فَينتشُوا بسِحرِ الوُجود.. فإذا بهِم يُقَطِّرونَ فيه رُحاقاتٍ من عبَثِ أحقادِهِم المُرَّة. الحُبُّ عناقيدُ بَهجَةٍ طيِّبَة تَفرُطُها أحيانًا دَبابيرُ الغَطرَساتِ بقَسْوَة، فيُفوِّتَ المَرْءُ على نفسِهِ العُصارةَ الرُّوحيَّةَ النَقيَّة. الحُبُّ دَفقاتُ يُنبوعٍ عَذبِ المِيَاهِ والنَّغَمَات، فإذا بتَلوُّثاتِ الثأرِ تُحيلُه سيلاً منَ الجَرَاثيمِ الفتّاكَة. ولكنّ هناكَ نَوعًا منَ الحُبِّ.. عَميقٍ.. عاصِفٍ.. إلهيّ! هو ذاكَ الذي يُخالطُ سُمُومَ الحَياةِ وَشُرُورَها ليُحيلَها دَوَاءً للرُّوحِ شَافيًا.

*****

لندن أيلول ٢٠١٦.

لقدِ انتقلَ صَخر سويدان من صيغةِ الغائب إلى صيغةِ المُتكلِّم.. في سَرديَّاتِه المُشوِّقَة التي يتلوها على مسامِعِ المُحقِّق شَكيب مدَوَّر، على شُرفَةِ هذا الأخير فوقَ بُقعَةٍ تاريخيَّةٍ ساحِرَة من نهر التّايمز العَريق، في ذلكَ الفندق ذي الفانتازيَّاتِ التَقليديَّة، انسِجامًا معَ الهندَسَةِ المُدُنيَّةِ التي هو قابعٌ بينَ ظَهرَانَيها.

قامَ المُحقِّقُ شَكيب من مكانِهِ على الكنبَة، ووضعَ قطعتَين من الثَلج في كأسِ كلٍّ منهُما صَخر وهو، وَسَكبَ الويسكي في الكأسَين، ثمَّ عادَ إلى مكانِهِ وأشعلَ سيكارَة، وأخذَ يُفكِّرُ في صَوتٍ عالٍ:

– إذًا صَخر سويدان هو ابنُ منير سويدان سائِق غسّان الجُردي بالتبَنِّي. وَغيث الرّاسي الاقتصاديُّ المَعروف وأحدُ أقنومَي ١٩ تشرين الأوّل ٢٠١٥ هو والدُه الحَقيقي؟!

رَشَفَ صَخر رَشفةً من كأسِهِ، وأجاب:

– تلكَ هي نصفُ الحَقيقَة.. والنِّصفُ الثاني...

– مَنْ هيَ والدتُهُ؟! قاطعَ المُحقِّقُ كلامَ صَخر. أتُراها الأقنومُ الثّاني في تلكَ الحادثَة الغَريبَة؟

– لا تكن لَجوجًا سيِّدي الكريم.. الكلامُ يأتيك.

– للمَرَّةِ الأولى أجِدُ نفسي هكذا "قصيرَ الأناة". حسنًا يا صَخر تابع حِكايتَك.

وتنحنَحَ صَخر في مكانِه، ومَجَّ مَجَّةً من سيكارتِه ووضعَها على المِنفضَة، ثمَّ أمسكَ بعضَ البزورات من الصَّحنِ أمامَه وتناولَ حَبَّة.. وشرَعَ يتَحدَّث:

– خرَجتُ منَ السِّجنِ أيُّها المُحقِّق بَريئًا. وما عدتُ سمِعتُ شيئًا عن تلكَ الجثَّةِ التي رأيتُها على شاطئِ الصيَّادين. ومُنير سويدان أبي الذي تبَنَّاني أحبَّني بعُمق.. وضَحَّى بالكثير لأجلي. كنتُ رَمَقَهُ الوجودِيَّ الأخير.. بل حَبلَ السُرَّةِ الذي يربطُه بالحَياة. علمتُ لاحقًا، أنَّ غسّان الجُردي الذي كانَ يعطفُ عليه ويَرعاه، هو مَن سعَى لخُرُوجي من السِّجن، وهو السَّاعي أيضًا في طلاقِ مُنير من زَوجتِهِ، وكانتْ عَشيقَتَهُ والجَميعُ يعرفُ هذا. لقد قالَ لي مُنير ذاتَ يَوْم.. وهو يَبكي بكاءَ الأطفال:

– هذِه القَحْبَة تنتاك مَعَ غَسَّان ويُغدِقُ عليها، وغسّان أيضًا يدفَعُ للمُحامي مالَ عَمليَّةِ الطَّلاق المَنحوسَة، وهو أيضًا يُعطيني مالَ أجرَتي كسائق عندَه! أرأيتَ يا بُنَيّ.. المالُ هو كلُّ شَيْء.. المالُ عَصَبُ الحَيَاة.. المالُ قوَّةٌ لساعِدَيك.. المالُ هَيبَةٌ وسَطوَة.. بل هو السِّحرُ الذي يَجعلُ منكَ إلهًا!

لقد كانت حالةُ منير سويدان النَّفسيَّة مُزرية.. فهو يشعرُ في ذاتِهِ بأنَّه نكِرَةٌ منَ النَّكِرات. عدُوُّهُ الذي دَمَّرَ بَيتَهُ وحَياتَه هو وَلِيُّ نِعمَتِه! ولا يَقدِرُ أن يتَحرَّرَ منه البَتَّة.

كانَ منير يشعرُ بالذُلِّ والمَهانَةِ بينَ النّاس، وغَسَّان يَختالُ حاسبًا نفسَه فاتحًا عَظيمًا والآخرين حَشَرات مِن حَولِه. أدركتُ في ذلكَ الحين أنَّ الضّعفَ لا يُطعِمُ خُبْزًا. القوَّةُ وَحدَها هي القيمَةُ العابرَةُ للعُصُورِ والمُجتَمَعاتِ والثَّقافات.. سُبحانَها لا حَوْلَ إلاَّ بها الحَيَّة الباقية! القويُّ يَصنعُ تاريخَه، والضَّعيفُ يَستَسلمُ لقدَرِهِ. القويُّ يُهندِسُ السِّيناريوهات والضَّعيفُ يؤدِّي دَورَهُ فوقَ خَشبةِ المَسرَح. القويُّ يأمُرُ الأحداثَ والضَّعيفُ يقولُ: "سَمْعًا وَطاعةً يا مَوْلاي".

وَمَرَّتِ الأيّام. وحدَثَ طلاقُ منير من زَوْجتِهِ بصَمتٍ غيرَ عابئٍ بهِ أحَد. وكانَ تسهيلُ وتسريعُ الطّلاق خيرَ مُساعدَةٍ قدَّمَها غَسَّان لسائقِهِ.. ولسانُ حالِ هذا الأخير "شُكرٌ وَمَمنونيَّة". وأمَّا أنا فعُدتُ إلى متابَعةِ الدِّراسَة. وكانَ صَعبًا جدًّا، بعدَ هذا الانقطاع الطّويل، العَودَة إلى اللّحاق بما فاتَني. أنهَيتُ البكالوريا وَدَخلتُ الجامعَة، وبقيَ مُنير سويدان بلا زَوَاج. لقد كانَ طبَّاخًا ماهرًا. وكانت إليج مُجبّر تأتي مَرَّتَين في الاسبوع لأعمالِ التَّنظيف في البَيت. أحيانًا كانَ يأتي رَشيد أخو مُنير، وكنتُ أناديهِ عَمِّي، جالبًا معه بعضَ الأطعِمَةِ والحلويات التي كانت تعمَلُها زَوْجتُه. وأحيانًا كانَ يُرسلُها معَ خادمتِه أو ابنِهِ أو ابنَتِهِ رَشَا! رأيتُ رَشَا للمَرَّةِ الأولى عندما كنتُ جالسًا على الشّرفةِ المُطلَّةِ على مَدخَلِ مَنزلِنا. كنتُ أستَعِدُّ للامتِحانات. وكانت هي تقودُ سيَّارةَ أبيها، فركَنَتها أمامَ المنزل تحتَ الشَّجَرة. أقولُ رأيتُها للمَرَّةِ الأولى لأنَّ علاقة أبي منير بذَويهِ كانت فاترةً، والتواصُل شبه معدوم ما خلا بعضَ المناسباتِ القليلة. والسَّببُ هو زَوجتُه وعلاقتُهُ بهذا السِّياسِيِّ الغريبِ الأطوار وَغير المَحبوب. رَأيتُها تهبطُ منَ السَيَّارَةِ بما يُشبهُ تَجَلِّيًا روحيًّا! حدَثَ تغيُّر ما عميقٌ في داخِلي لا أدري ما هو. السَيَّارَةُ سيّارةُ رَشيد عَمِّي، أعرفُها رأيتُها من قبل.. وأمَّا هذه الصَبيَّةُ الرَّقيقَة..! فقادَني الاستنتاجُ أنَّها رَشا التي سَمِعتُ عنها ولم ارَها بَعد. قمْتُ واقتَرَبتُ وأنا على الشُّرفة. رَأتني هي. ثمَّ دَارَت إلى ما وَرَاء السَيَّارَة وفتحَت صُندوقَها، وراحَتْ تُخرجُ الأغراض. ثمَّ تراجَعَت وَنَادَتني:

– ستأتي وتساعدُني يا صَخر.. أم انَّكَ باقٍ مَكانَك؟

كانت تعرفُ اسمي. هي أيضًا سمِعَتْ عنّي من رَشيد والدِها. وحكايةُ منير سويدان من الحِكاياتِ التي ما إن تجتمِعُ العائلَة حتى يَتَجاذبونَ أطرافَ جَديدِها وتَطوُّراتِ فصولِها الأليمَة. بالتأكيد كانوا يقولون عن مُنير أنَّه "معتَّر.. طيِّب القلب.. وزَوْجَتُهُ الفاجرَة مَسَحَتْ شَخصيَّتَه وركَّبَتْ له قرونًا"، وأنَّه "كلب حِراسَة عندَ غَسَّان الجُرْدي". ولكن.. ما إن سَمعْتُ اسمي يَنسَابُ على فَمِ رَشَا انسيابَ موسيقًى، أو كإيقاعِ زَقزَقةِ العَصَافير في صَباحٍ رَبيعيٍّ مُنعش.. عندَ نقزَةِ العَيْنَينِ مِن حُلُمٍ لطيفٍ جَميل.. أجَبتُها:

– تكرَمْ عْيونِك هالحِلوين.

وَقفزْتُ فوقَ درابزون الشُّرفَة وجئتُ إليها. قالت:

– أنا رَشَا ابنةُ رَشيد يا صَخر.. ألا تعرفُني؟

– بَلى.. أعرفُكِ يا رَشَا.

وقفنا أمامَ صُندوقةِ السيَّارَة.. لثوانٍ وكأنَّها دَهر. تشابكَتِ العيُونُ الأربَعَة، وغُصْتُ في ملامِحِها وعَينَيها الطيِّبَتَين. وعَرَفتُ أنَّها هي أيضًا كانت تقرأ في وَجهي حِكايةً ما.. ألمًا ما جَميلاً.. بل تاريخًا.. كانت تبحَثُ عَمَّا أوصلَ إليها بَريدُ القِيْلِ والقال عَنِّي. سَألتْني:

– كيفَك صَخر؟

– أنا الآن.. صِرْتُ بحَالةٍ أفضَل.

فابتسَمَتْ.. وعَيناها قنديلانِ مُعلَّقانِ في سَقفِ هُمومِي. وأضافَتْ بصَوْتٍ دافئ:

– خيرٌ إن شاءَ الله.. مِمَّ تشكو؟

– الدُّرُوسُ يا رَشَا.. دروسُ الامتِحاناتِ مُرهِقة. قلت.

– يَعطيك ألف عافيه. نشالله تنجَح. أنا أعرفُ أنَّكَ شاطر ومنَ الأوائل.

ثمَّ انحَنَتْ.. وأمسكَتِ القُفَّة المَليئَة بأنواعٍ منَ الأطعِمَة.. وقالت:

– ما في شي من قيمتكون.. لقد أحَبَّتْ أمّي أن ترسِلَ هذا الطَّبيخ.. كبّة بالصَّينيّة وتبُّولة ووَرَق العنب ومِحشي كوسا وحبِّة حلو صفوف وزنود السِتّ وقالب حلوى.. وزيتون وكبيس وغيرَه لا أدري ماذا... خذ هذِه أنت.. وأنا سأحمِلُ هذه.

قلتُ لها:

– هذه مونة الشَّتويّة؟!! دَائمًا تفكِّرون بنا، وأمُّكِ إمرأةٌ عَظيمَة. دَعيني أحمِلْ هذه أيضًا عنكِ. فقالت وهي تبعَثُ في نظراتِها رسالة:

– هكذا.. أنتَ تقولُ لي شُكرًا لكِ يا رَشَا معَ السَّلامَة.

– لا أنا أرَدْتُ أن أريحَ يدَيكِ لكي تُحَضِّرا لنا كبَّاية عَصير وفنجانَ قهوة طيِّبًا.. كأناملِكِ الحُلوَة تماماً.

ثمَّ دَخلنا ووَضَعنا الأغراضَ في المَطبَخ. وأخرَجْتُ قنِّينةَ ماءِ الوَردِ لأحَضِّرَ لنا كوبَين.. فأمسكَتِ القنّينةَ من يَدي وقالت:

– هاتِ الآنَ دَوري أنا.

حَضَّرنا كوبَي العَصير بالثلج وخرَجنا إلى الشُّرفةِ وجَلسنا. ولم نكَدْ نتَجَاذبُ أطرافَ الحَديث حتى وَصلَ أبي منير. ركَنَ سيَّارَتَه بجانبِ سيَّارَةِ رَشَا وخرَجَ إلينا. نهَضَت رَشَا وسَلّمَت على عَمِّها وقبَّلَتْه وقبَّلَها:

– كيفَك عَمّو؟

– أهلا رَشَا! كيفِك حَبيبتي؟ وكيف البابا والماما؟

وجود مُنير مَعَنا كانَ تشويشًا كبيرًا على كيمياء رُومنسيَّة كانت في طريقِها إلى التَكوُّن، وستَتكوَّنُ لاحقًا. وعندَما قامَتْ رَشَا تريدُ أن تعمَلَ لنا القَهوَة، لم يقبَلْ أبي فحَضَّرَها هو لنا. ورُحنا نَحسُوها. وكانَ أبي يُخاطبُنا ويتحدَّث.. وأنا ورَشَا لا نَعي ما يقول. كنّا مَشغولَين بتَفسير التَّرَاسُلاتِ المَكُّوكيَّةِ المُشفَّرَة بينَ العُيُونِ الأربَع والكِنايات. ثمَّ أنتهَينا من قهوَتِنا ووقفَتْ رَشَا.. شَكرَناها على الطَّعام والحَلاوين وَوَدَّعَتْنا، وبَقيتُ أنا على

الشُّرفة أراقبُها وهي تخرجُ وتركبُ سَيَّارَتَها وتنطلق. وعندَما عبرَتْ من أمامي، لوَّحَت لي بيَدِها، كأنَّها ترسِلُ إليَّ نسمَةَ حَيَاة.. كما فعَلَ الله معَ آدَمَ في جَنَّةِ عَدن، ونادَتْ:

– باي صَخر. إلى اللِّقاء.

كانَ هذا اللّقاءُ تُخمًا عازلاً بينَ الوَضعيَّتَين النَّفسِيَّتَين عندي، قبلَه وبَعْدَه. بُعَيد لقائي الأوَّل برَشَا رُحتُ ألتقِطُ صورَ الوَجودِ والكائنات بعدَسَةِ الحُبّ.. فإذا هي رائِعَة! كأنِّي بالحُبّ هو التَّتبيلةُ الوَحيدَة التي يَجبُ استِخدَامُها لجَعلِ يَومِيَّاتِنا ألذَّ وأطيَب. الحُبُّ أناملُ أفروديت وهي تمسَحُ العُيُونَ النّازفة التي لم تكن ترَى غيرَ أشكالٍ وألوانٍ مُتداعيَةٍ مُفكَّكَة ضبَابيَّةٍ هُيوليَّةِ التُّخوم. منذُ أشرقَ وَجْهُ رَشَا في ظلمَةِ كياني.. بدأتُ أشعرُ بأنِّي كائنٌ حَيّ.. بل انِّي أولدُ مِنْ جَدِيد.

وأمَّا اللّقاءُ الثّاني فكانَ بعدَ ثمانيَةِ أشهُر.. ويومَ الأحَد في الكنيسَة. لقد ألَحَّ عليَّ، وهذا من غرائبِ المَقدور! أبي مُنير أن آتِيَ لأسمَعَ القدَّاسَ معَه. وطلبَ منّي أن أقودَ السيَّارَةَ لأنَّه كانَ مَوعوكًا من ألَمٍ في أسفَلِ ظَهرِه. وهذا يوحي لي، أحيانًا، أنَّ الانسانَ يُؤَدِّي دَوْرًا على مسرَحِ عُمرِهِ.. واحِدًا وَحيدًا! لا يَسَعُهُ أن يَختارَ سِواه. وما إن دَخلنا تلكَ الكنيسَة الرِّيفيَّةَ الطّابع.. والأشجارُ العاليَة الوارفة تُحيطُها من كلِّ ناحيَة.. كأنَّها أناملُ اللهِ تغطّيها وتحميها من فَضَاآتِ الحَياةِ الآثمَة.. وقعَ بَصَري على رَشا وأمِّها وأبيها جالسِينَ على أحَدِ المَقاعِدِ الخَلفيَّة.. يا للصّدفة! كانت رَشَا كأنَّها مَلاكٌ في السَّماء. الوَجهُ كانَ خاليًا منَ التبَرُّج، واللِّباسُ متواضعًا. الانسجامُ التامّ بينَ دَقائِق ملامِحِها جَعلَها بغنًى عنِ التَّلويناتِ التي توقعُ الذّائقةَ في الكَمين. وكانَ القدّاسُ كأنّه كابوسٌ بالنِّسبةِ إليّ. خَرَجتُ إلى باحَةِ الكنيسَةِ وانتظرتُها بفارغ الصَّبر. وما إن خرَجَتْ منَ البابِ حتى اقتربَتُ منها وَحَادَثتُها.. غازَلتُها.. أضحَكتُها.. نَظَرْتُ إليها كأنَّها تختَصِرُ نِسَاءَ الكونِ جَميعَهنّ. قرأتُ سُطورَ الفَرَحِ في عَيْنَيها.. وضِحكتِها التي رسَمَتْ على أوتار قلبي نوتاتٍ لم أسمَعْ بمثلِها من ذي قبل. الحُبُّ صانِعُ سمفونيَّاتٍ رائعَة! لاحظَ مُنير، بالتّأكيد، وَعَمِّي رَشيد وزَوْجَتُه انفرادَنا واهتمامَ واحدِنا بالآخر. وهنا بدأ "الصَيَّادُ الأسوَدُ" يَتلصَّصُ علينا لكي يُجهزَ على طيُورِ الحُبِّ التي لم تَبدأ بَعدُ في تَغريداتِها

العَذبَة. قلتُ لها بصرَاحَة، وكلماتي ليسَت غيرَ هوامشَ للنَّصِّ الأصلِيِّ الذي رُحتُ أبوحُ بهِ في نظراتي إليها:

– أنا مُشتاقٌ لفنجانِ قهوَةٍ من يدَيكِ الحُلوتَين.. لماذا لا تزُورينا يا رَشَا؟

فأجابَتْ في نغمَةٍ مُعاتبَةٍ هي الأخرى:

– لماذا لا تزُورُنا أنتَ وتشرَبُ من قهوتِنا الطيِّبَةِ يا صَخر؟!

– سآتي يا رَشَا.. في أوّل فرصَة إن شَاءَ الله. قلتُ لها.

– تعالَ وتَغَدَّ عندَنا.. اليَوم يومُ أحَد.. وهذِه فرصَة نادرَة!

– دَعيني أسألْ أبي. قلتُ أنا.. وقالت هي:

– وأنا سأحاولُ أن أقنِعَ والدَيَّ بأن نتغَدَّى جميعُنا اليومَ معًا، إنّها فرصَة! ورُبَّ صدفةٍ خيرٌ من ألفِ ميعاد.

وهكذا كان.. وَنجَحَتْ مَسَاعينا لدَى الأهل، وَرُحنا وتناولنا الغداءَ عندَ بيتِ عَمِّي رَشيد. وكانَ لقائي طويلاً مُرْوِيًا معَ رَشَا. شربَ أبي وعَمِّي العَرَق، وأجبَرَتني رَشَا أن أسايرَها بقدَحٍ أيضًا. ورَشيد لديهِ صَوْتٌ جَميل.. فأنشَدَ لنا، ونزولاً عندَ طلَبِ رَشَا، عدَدًا من أبياتِ العتابا ذاتِ مَضمونٍ غَزَليٍّ. والحَقيقة أنَّ هذِه الغزليَّاتِ اللّطيفة كانتِ الموسيقى التَّصويريَّة لما يدورُ في ساحةِ حُبِّنا من تطوُّراتٍ دراميَّة. وبَعدَ أن تناولنا الفواكهَ والحَلوى وشَربنا القهوَة، جلسنا لوَحدِنا، أنا وَرَشَا، نستمِعُ إلى الموسيقى. كانت تعشَقُ أغاني وردَة ونجاة الصَّغير وراغب علامه، تلكَ التي غنّاها في بداياتِهِ في الثمانينات. ثمَّ تَمَشَّينا قليلاً على الدَّرْبِ القريبَةِ منَ البيت. وعندَما دارَ التَّساؤلُ بيننا عن الحُبِّ الأوّل.. كانَ التَّجاوبُ أنَّ لا مَرَّة سابقة. وهذا يَعني أنَّنا كنَّا نَعيشُ أمتَعَ لحَظاتِ الحَيَاة.. لأنَّها مَرَّتُنا الأولى.

– ألم تصاحِبْ يا صَخر.. ألم تُحِبَّ في حياتِك؟ سألتني هي أوّلاً.

– لا.. ولكنَّ الذي يرَى عَينَيكِ الحُلوتَين، ولو كان قد أحَبَّ عشرَاتِ الفتيَات قبلَكِ، سيَشعرُ بأنّه يُغرَمُ للمَرَّةِ الأولى. وهذا كان جوابي. فضَحِكَت ضِحكةً يَمتزجُ فيها الخَجَلُ بطلبِ المَزيدِ من المُداعباتِ الغزَليَّةِ هذه. قلتُ لها:

– حَفِظتُ هذا البَيْتَ للمُتنبِّي عندما كنَّا في البَكالوريا.

– ما هو؟ سألَتْ.

– وَمَا كنتُ مِمَّنْ يَعشَقُ الحُبَّ قلبُهُ.. ولكنَّ مَنْ يُبصِرْ جُفونَكِ يَعْشَق. ثمَّ سَألتُها:

– وأنتِ.. ألمْ يُعْجبْكِ شابٌّ بَعد؟

– في الماضِي لا. ولكن في الحاضِرِ رُبَّما. هكذا كانَ جَوَابُها، وكانَ علامَةً لي.

ثمَّ تواعَدنا بعدَ ذلِكَ، وتلاقينا وخَرَجنا معَ الرِّفقةِ والأصحاب إلى الأنديَةِ والسَّهرَات.. عددًا منَ المَرَّاتِ لا يتجاوزُ عددَ أصابع اليَدَين! أجَل.. كانتْ هذه حلُمًا لن أنساهُ ما حَييت. إلى أنِ اتَّصلَتْ بي هاتفيًّا ذاتَ يوم.. وقالت لي أنَّها لن تأتيَ معي في مَسَاءٍ كنَّا ذاهبَين فيه إلى السِّينما. ثمَّ بعدَ أيَّام التَقينا صدفةً في النّادي، وقالت لي والدَّمعَةُ تخنُقُ كلمَاتِها:

– صَخر.. اللّقاءُ بَعدَ اليَوم صَعب.. بل مُستحيل!

كانت كلِماتُها خِنجَرًا في صَدري! بل في عُمري. لمْ نتواعَدْ بَعدَها.. لم نَبتَهِجْ.. لم نَشبَعْ منَ الحُبِّ الذي أرادَ أن يُذيقَنا نَسمَةً من مَلكوتِهِ الفَسيح، وتركَنا جَرحى ظُلمِهِ وقَساوَةِ عبَثِهِ. أقنَعَها أبوها رَشيد بأنّي لستُ ابنَ أخيهِ، وبأنِّي مَجهولُ الهُويَّة، وهو يخشى أن تتَطوَّرَ العلاقة بينَنا، ثمّ يتَّضِحُ في المستقبل ما لا يُرضي من جِهَةِ نسَبي. هذا بالاضافةِ إلى سُمعَةِ مُنير سويدان في زَوَاجِهِ الفاشِلِ وبَيتِهِ المُتداعي. وقد قالَ لي هو أيضًا بحَزْم:

– رَشيد حُرٌّ بابنَتِه.. وأنا لا أستطيعُ إقناعَه. أنصَحُكَ أن تنسَى رَشَا.. ليسَ الوقت وقتَ زواج يا صَخر. وعندَما يحينُ الوَقت بناتُ الحَلال كثار.

وهكذا شرَعتُ أحاربُ ذاكرَتي وَحَنِيني وحِرماني علَّني أنسَاها.. ولكنِّي ازدَدتُ تعلُّقًا بها. وَيَبدو أنَّها هي كانتْ تذوقُ المُعاناة نفسَها. وإذا التَقَينا بالصّدفةِ في النّادي.. على الدَّرب.. في الشّارع.. في المَطعَم.. نتَصَافحُ ونَتَعَانقُ لثوانٍ.. وَتَبكي هيَ وتقولُ بأنَّها مُتألِّمَة ولا تستَطيعُ أن تَتخَطّى ألمَها. ثمَّ بدأت مَرحلَةٌ أخرى في هذِه العلاقةِ الحَزينة.. فشَرَعنا نتراسَل.. عبرَ وسيطٍ أو عبرَ البريدِ التَّقليديّ آنذاك. ثمَّ اقتنَعنا في مَرحلةٍ ما متقدِّمَةٍ بأنَّنا رُوحٌ في جَسَدَين. وجَاءَت إليَّ بفكرَةٍ ذاتَ يوم، وفي رسَالةٍ سلَّمَتني إيَّاها بيَدِها في النَّادي وَمَشَت بسُرْعَة، طرَحَت عليَّ فِكرَةَ "الخَطيفة". ذُعِرْتُ أنا للمُفاجَأة! لمْ يَعِنَّ لي هذا المَوضوع قطّ. الظُّرُوفُ مُستحيلة! إنَّهُ تمَرُّدٌ مَجنون. ولكنَّ ثورَتَها.. إن هي إلاّ صَدى حُبٍّ صادقٍ حَقيقيٍّ لاهِب. أقنَعَتني بأنَّ الحُبَّ يأتي مَرَّةً واحِدَة.. وهو خَليقٌ بالمُغامَرَة، وإذا كانَت هذه قِسمتُنا في هذه الدُّنيا.. فلماذا نخسَرُ قسمتَنا. وأبقَينا الأمرَ سِرًّا.

– ولكن.. ألمْ تتذكَّرْ في هذِه المَرحلةِ بالذّات.. كلماتِ وفاء الجَدَّة على غِلافِ الإنجيل الذي أعطَتكَ إيَّاه عن غيث الرّاسي؟ ألا زلتَ تحتفِظُ بهِ بالمُناسبَة؟

قاطعَ المُحقِّقُ شكيب مْدَوَّر كلامَ صَخر بسُؤالٍ أيقظَه من سَرديَّاتِ الرِّوايَة. فأجابَ صَخر وهو يبُلُّ ريقَه برَشفةٍ منَ الويسكي أمامَه.. وراحَ يُشعِلُ لفافةً أخرى:

– بلى.. حاولتُ وفشلت. لم يَقفِزْ غيث الرّاسي إلى الواجهَة إلاّ بعدَ عودَتِه من أميركا.

– وماذا كانَ يفعَلُ في أميركا؟ سألَ المُحقِّق.

– غيث الرّاسي عِصاميٌّ عَنيد. لقد كوَّنَ إمبراطوريَّتَهُ بنفسِه في أميركا. وإنجيلُ وَفاء أحتفظُ بهِ حتى السَّاعة.

– حسنًا.. تابع. قالَ المُحقِّق. وتابعَ صَخر:

– لم أخبرْ أبي مُنير بمَشروع "الخَطيفة". كنتُ أعرفُ رَفضَهُ مُسبقًا. لقد تركتُ له رسالةً على طاولةِ المَطبَخ أسنَدتُها على كأسِ زجاج. وهكذا رَتَّبْنا خُطَّةَ هُروبِنا أنا ورَشا، ولا ندري إلى أيِّ مُغامرَةٍ نحن ذاهبان. والذي يقودُنا في هذه العاصفة هو قاربُ

الحُبِّ وَحدَه.. وهو سلاحُنا ودليلُنا. لقد كانتِ الخُطَّةُ ببساطَة أن نأخذ سيَّارةَ تاكسي اتَّفقنا معه قبلَ أيَّام، ونكون قد جهَّزنا أغراضنا ولباسَنا البَسيط في حَقِيبتَين.. حَقيبَتي أنا وحَقيبتِها هي. ويَنتظرُني التَّاكسي عندَ المَفرقِ في السَّاعةِ الرَّابعةِ والنِّصف صبَاحًا. أنا لم انَمِ البتَّةَ في تلكَ اللَّيلة! كنتُ مَشدودَ الأعصابِ مِن أمِّ الرّأسِ حتّى الأخمُصَين. نهَضْتُ من فِراشِي ومَشَيتُ على رؤوسِ أصابعي، وارتَدَيتُ ملابسي وَأدخلتُ المالَ الذي ادَّخَرتُهُ في جَيبي، ووَضَعتُ الحَقيبَةَ خارجَ بابِ المَدخل، وعدتُ إلى المَطبخ وجَلستُ على أعصابي أفكِّر! وكلَّما سمِعتُ صَوتًا ما حَسِبتُهُ أبي صَحا وَجَاءَ إليّ. قرأتُ رسالتي للمَرَّةِ الأخيرَة وتركتُها على الطّاولة، وخرَجتُ منَ البَيتِ عندَ الرَّابعَةِ بَعدَ مُنتصفِ اللّيل، ورُحتُ أمشي نحو المَفرق. كانتِ المنازلُ مُظلمَةً، وبعضُ مَصَابيحِ البلَديَّةِ مُطفأ، والقمَرُ متوارٍ وراءَ الغيوم، وَصَوتُ حشَرَاتِ اللّيل موسيقًى تصويريَّة مُخيفَة... كانَ اللَّيلُ عَباءَتي السَّوداء. وعندما مَرَرْتُ في الزّاروبِ تحتَ نافذةِ بيتِ فايز مَخّول سَمِعتُ أنينًا أنثويًّا! كانَ هذا تأوُّهاتِ زَوجتِهِ في لذَّتِها. فقلتُ لنفسِي: "ليلتُكَ آتيَةٌ يا رَجُل معَ حَبيبَتِك الولوع رَشَا". ووَصلتُ إلى المَفرقِ وَجَلستُ على حافَّةِ الطَّريق. بعدَ نصفِ ساعة وصلَ السّائق. رَمَيتُ حَقيبَتي في صُندوقةِ السيَّارَة وصعَدتُ إلى جانبِه. وبعدَ ثلثِ ساعةٍ كنّا عندَ الشَّجَرَةِ وراءَ مبنى مدرَسَةِ اليَسوعيِّين الابتدائيَّة، حيث كانت رَشَا وَحَقيبتُها تنتظرُنا منذ نصفِ ساعةٍ أيضًا. وَثَبتُ إليها وَضَمَمْتُها إلى صَدري وَعَانَقتُها بحَرَارة. قالتِ المِسكينةُ لي وهي مُغمضَة العيْنَين: "شُدَّ أكثَر بَعد يا حَبيبي". وكانتِ المَرَّةُ الأولى التي عانَقتُها فيها بإحساسٍ لم اذُقْ نَظيرَ عُذوبَتِهِ من قبل. وَضَعتُ حَقيبَتَها في الصُّندوقةِ وجلسنا في المَقعَدِ الخَلفِيّ، وانطلقتِ السَيَّارةُ بنا إلى مَدينةِ دوما الشِّماليَّة ذاتِ الأبنيَةِ النَّموذَجيَّةِ الحَمراء، وكنَّا في بدايةِ فَصلِ الرَّبيع تقريبًا. لم نَتَكلَّمْ في السَيَّارَة، كانتْ مُرتَمية على كتِفِي، وكنتُ أحيطُها بذراعي وأقبِّلُ شَعْرَها. سألَ السّائق:

– هكذا لوَحدِكما..! أليسَ هناكَ مَن يُساعدُكما ويُسَهِّلُ لكما أمورَكُما؟

أجابَته رَشَا بصَوتٍ أجَشّ:

– ليسَ لنا غير الله وَحُبِّنا الصَّادق.

– وَفَّقكُما الله يا ابنَتِي.. أتمَنَّى لكما كلَّ الخَير، وَمبروك سلَفًا.

وَصلَنا إلى الفندق. أعطَيتُ السّائق نقودَهُ وَدَخلنا وأخذنا مفتاحَ غُرفتِنا بَعدَ لأيٍ.. وَصَعدنا. وخارطةُ الطّريق أن نبقى ليلةً واحِدَة فقط في الفندُق، وفي صباحِ اليوم التالي نذهب إلى صديقٍ لي في تنُّورين، ونَبقَى يومين ثلاثة عندَه، ونتَّصِلُ بذَوينا من خلالِهِ ونُعلِنُ "الخَطيفة". بَقينا في غُرْفتِنا ريثما جاءَ وقتُ الفطور. نزلنا تناولنا الفطورَ ثمَّ عدنا إلى غرفتِنا. كنّا أنا وَرَشا في حَالةِ توتُّرٍ شَديد.. لأنَّ رَدَّةَ الفِعل على إعلانِ الخَطيفة سوفُ تُحدِّدُ قراراتِنا والخطواتِ التاليَة. مَرَّ الوَقتُ والدَّقيقةُ بيَوْم! وعندَ الظُّهْر نزلنا أيضًا وتناولنا الغَدَاءَ ثمَّ صعَدنا واستلقَينا. وَضَعَتْ رَشَا رأسَها على صَدري وَسَألتني:

– هل سنَنجَحُ يا صَخر؟

– نَحنُ نفعلُ ما يُمليهِ علينا حُبُّنا، وهذا كافٍ.

– أتُرى يَنتصرُ الحُبُّ دائمًا؟ ألحَّتْ في سُؤَالِها.

– لن نفشَلَ يا حَبيبَتي. سَنقِفُ في وَجهِهِم رَيثما يَستَسلمون. أجَبْتُها، فقالت لي:

– غريبٌ أمرُ هذا الحُبّ.. مُغامرٌ شُجاع.. يتَحدَّى المُستحيل.. وهذا ما يَجعلُه رائعًا.

كنّا نتَجَاذَبُ أطرافَ الحَديث.. قلِقَيْن. وَحَالةُ التَوتُّر ألغَتْ ديناميَّةَ الانفِعالِ الجنسِيّ. وَغرَقنا في غفوَةٍ طويلة. ثمَّ صَحَونا بَعدَ سَاعَتَين.. وأخَذنا دُوْشًا. ثمَّ نزلتُ أنا لأجري اتِّصالي بصديقي في تنُّورين، واتَّفَقتُ معه أن نأتي لعندِه في اليَومِ التّالي قبلَ الظُّهر. منزلُه فسيحٌ عندَ أطرافِ البَلدَة، ولا يأتي إليهِ إلاَّ في عُطلةِ نِهَايةِ الأسبوع هو ووَالدَتُه. وهكذا في اليَوم التَّالي عندَ السَّاعةِ التَّاسِعَة حَضرَتْ سَيَّارَةُ التّاكسي، فدَفعتُ أنا مصاريفَ الفندق وانطلقنا إلى تنُّورين. ولم نكَدْ نصِلُ إلى منتصفِ الطّريق بين دوما وتنُّورين، وسطَ البَريَّةِ المُنعَزلةِ، حتى اعترَضَتنا سَيَّارَتان غريبَتان انبَثَقَتا منَ العَدَم! أجبَرَتا سائقَنا على التَوَقُّفِ بجانبِ الطّريق. نزلَ منها أربَعَةُ رجال، ونادَى واحدٌ منهم:

– صَخر وَرَشَا تفَضَّلا مَعنا بكلِّ هدوء.. والآنَ في طريقِ العَودةِ تعرفان كلَّ شَيْء.. ولا تُجبراني على استخدامِ طريقةٍ غير لطيفة.

خافَتْ رَشَا وشرَعَتْ تبكي. فضَمَمتُها إلى صَدري، ونزلنا بهُدوءٍ. سألتُه:

– ولكن مَنْ أنتم؟

– ستَحصل على التَّوضيحاتِ كلِّها في الطّريق. اصعدا في هذه السَيَّارَة من فضلِكما.

وَضَعوا الحَقيبَتَين في سَيَّارةٍ ونحن رَكبنا في السيَّارةِ الأخرى. وأعطوا التَّاكسي أجرَتَه وتركَوه لسَبيلِه. وبَعدَ دَقائقَ مِن انطلاقِنا قالَ لي قائِدُهم:

– ستكونان في ضِيافَةِ غَسَّان الجُردي بعدَ قليل. أنتما مَدعُوَّان لتناولِ الغَدَاء في شُقَّتِه الخاصَّة في البَرْبارَة.

وهكذا كان. وحتمًا لم يَكن هذا الكَرَمُ في دَارتِهِ الفسيحَةِ في المنصوريَّة.. بل في شقَّةٍ عاديَّةٍ في بلدةِ البرْبَارَةِ السَّاحليَّة. إنّها "القبْوُ الأسوَد" للتَّخطيطِ والمُتعَة! وصلنا وكانَ حَضْرَتُه في انتِظارِنا في الرَّدهةِ. أمَرَ رجالَه بالانصراف، وقالَ لرَشا:

– رَشَا أنا مُكلّف بإعادتِكِ إلى أهلِك. وهذا الزَّوَاج لنْ يَتِمّ. ستَتَناوَلين الغَدَاء مَعَنا اليَوم، ثمَّ يوصلُكِ شابّ إلى بَيتِكم. وأمَّا صَخر فأنا بحَاجةٍ إليه في مَوضوع عَمَل.

لقدِ اتَّصَلَ أبي بغَسَّان الجُردي وطلبَ منه المُسَاعدَة. وَغَسَّان أوْكلَ المَهَمَّة لفريقِهِ السِرِّيّ الذي يُطلقُ عليه اسمَ (أشباح النّار). وهؤلاء مُحترفونَ يَعرفونَ كلَّ شَيْء. وَمُنير سويدان لا يُريدُ مَشَاكلَ معَ أقربائِهِ أكثر مِمَّا هو عليه الحال. أدْرَكتُ كم أنا ضعيف وكم هو غسّان الجُردي قويّ! إنّهُ ساحرٌ يَحصلُ على ما يُريد بالكَيفيَّة التي يُريد. قالَ لي أنَّ الحَيَاةَ لا تتقَدَّمُ بسَلاحفِ العَاطفَة.. وإنَّما بصُقور القُوَّة. والعاطفة خاسِرَةٌ دَومًا، وأمّا القوَّة فهي رابحَة. القُوَّة وَحدَها هي رَكيزَةُ الحَيَاة. كنتُ أكرَهُ غسّان الجُردي.. ولكنَّهُ راحَ يُعاملُني، منذُ تلكَ الخَيبَةِ الجارحَة، كابنٍ له. وقال لي أيضًا:

– لو قبِلَ مَعِي أبوكَ مُنير بمَا عرَضتُهُ عليهِ من مَشَاريع.. لكانَ الآنَ من مشاهيرِ الأقويَاء. فلا تُضَيِّعْ أنتَ ما خسِرَه أبوك.

لقد طلبَ منّي غسّان الجُردي الانضمامَ إليه، وإلى فريقِهِ السِّرِّي. ولأنّه وَجَدَ فيَّ الشَجَاعَة والذَّكاءَ، وهو يعرفُ تاريخ علاقتي بمُنير سويدان، أرسَلني تحتَ ضَغطِ التَّرْغيبِ والتَّرهيب، لأعمَلَ (دَورةً في التَحَريَّة)، ثمَّ أجرَيتُ بعدَ ذلكَ تدريبًا خاصًّا شاقًّا وَسِرِّيًّا على أيدي فريقِه. وهذا كانَ كافيًا "لفَرْمَتَةِ قلبي وذاكرَتي" منَ الحَنينِ إلى الطيِّبَةِ القلبِ رَشَا. وفي تلكَ المَرحلةِ طَويتُ صَفحَةَ العَاطفَةِ من حَيَاتي.. صَفحَةَ الضَّعف.. صفحَةَ العَجْزِ والقصور.. وأصبَحْتُ شَبَحًا في مَجموعةِ (أشباح النّار) السِّرِيَّة التابعة للسِّياسيّ غسّان الجُردي. وهكذا وُلدَتْ شَخصيَّتي الثّالثة باسمِها السِّرّي الجَديد. ولم اسألْ عن رَشَا المِسكينة.. فقط لأنتَقِمَ من ذُلِّي وضَعفِي.. ولأصبِحَ ذا قوَّةٍ ساحرَةٍ نافذَةٍ كالتي لغَسَّان الجُردي. ولأنّي أصبَحْتُ آلةً بَشَريّةً ذَكيّةً ذات حاسَّةِ شَمٍّ فائِقة.. عزَمتُ على العودةِ إلى البَحث المُستَمِرّ عن والدِي الحَقيقي غيث الرَّاسي.

ثمَّ غمَسَ صَخر سويدان سيكارتَه في المِنفضَة، وكرَعَ ما بقيَ في كأسِهِ منَ الويسكي.